مراجعات متأملة في المشروع السلفي الإصلاحي

08-9-2002

محمد سليمان

وأسجل هنا ملاحظة أساسية، وهي أن المشروع السلفي الإصلاحي ليس بديلاً عن الحركات الإسلامية الأخرى، وانما مسانداً ومكملاً لها، ويحمل ميراثاً كبيراً في منهجية الاصطلاح يبتدئ بابن تيميه وابن القيم مروراً بمحمد بن عبد الوهاب والشوكاني وكذلك بابن باديس ورشيد رضا وعلال الفاسي وصولاً الى اليوم، فيسعى هذا المشروع الى تقديم الخطاب الإسلامي في الهداية والتذكير والإصلاح والنهضة بأبعاده الشمولية مستفيداً من التجارب السابقة ومن الموروث السلفي الضخم. فالتوحيد ومحاربة الشرك والبدع والأهواء والضلالات والدعوة الى التحرر من قدسية الأشخاص وانزال النص الفقهي منزلته الحقيقية في إمكانية الخطأ والصواب، والدعوة والعمل على فتح باب الاجتهاد والتجديد ونبذ الجمود والتقليد ونشر خطاب التذكير والوعظ والعمل الإصلاحي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبناء المؤسسات والمشاركة في الميادين الاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية أهم المعالم والتحديات بخصوص المشروع السلفي الإصلاحي اليوم..

بقلم محمد سليمان

تشكل الحركة السلفية المعاصرة روحا قوية وفكرا حديثا يسري في جسد الأمة والمجتمعات العربية، وتختلف الآراء والمواقف تجاه السلفية، بل يتباين تعريف المفهوم، ويختلف تحديد إطاره الفكري والحركي بين باحث وأخر .ولعل تعدد الجماعات السلفية واختلاف جملة من أطروحاتها ومواقفها في مسائل عقدية وفكرية وسياسية ..، دفع إلى خلط والتباس أديا إلى عدم القدرة على دراستها دراسة منصفة معتدلة، خاصة وقد أصبحت هذه الدعوة مدار الاهتمام الإعلامي والدولي في السنوات الأخيرة حيث تطورت بشكل كبير واخترقت ميادين سياسية وثقافية وعسكرية واسعة. في هذا المقال أحاول رصد أهم مراحل تطور الدعوة السلفية ، وقراءة واقعها واستشراف مستقبلها .

- 1 - مدرسة ابن تيميه

يعتبر احمد تقي الدين ابن تيميه (661-728هـ) المؤسس الفعلي للمدرسة السلفية الحديثة من خلال اعتمادها بشكل كبير على فكره ومنهجه في تفسير الإسلام. وعلى الرغم من أسبقية مدرسة الحديث والمذهب الحنبلي على مدرسة ابن تيميه، والتي تلتقي بشكل كبير مع المدرسة السابقة – كما سيأتي – إلا أن إضافات ومجهودات ابن تيميه جعلته بمثابة العلم الأول والرمز الكبير لهذه المدرسة حيث لقب بشيخ الإسلام. ولا نستطيع أن نتجاوز بأي شكل من الأشكال ما لهذا اللقب من دلالات نظرية وعملية.

كما أننا لا نستغرب هذا الاهتمام الكبير بتراث وفكر ابن تيميه من قبل المدرسة السلفية الحديثة ؛ إذ أنّ في شخصية هذا العلم الإسلامي معرفياً وسلوكياً ثراءً كبيراً،وقد قدّمت هذه الشخصية ميراثاً هائلا، في جوانب مهمة في ميدان المعرفة الإسلامية وتنظيمها وردّها إلى أصولها، وأيضا في ميدان الجهاد العملي وتكريس مبادئ هذه المدرسة العلمية في ميادين الواقع، وبالتالي تأسيس مدرسة إسلامية تجديدية نفثت روحاً جديدة في الحضارة الإسلامية، وأنتجت علماء وقيادات ومفكرين ابتداء بابن قيم الجوزية وابن كثير، وليس انتهاءً بالشيخ سفر الحوالي وغيره.

فقد جاء ابن تيميه في عصر انحطاط شامل ديني وسياسي وعلمي و أخلاقي، وبدأ مشروعه الإصلاحي منذ سنين مبكرة، وعلى الرغم من بدايته الحنبلية إلا انه تجاوز الإطار الحنبلي إلى رحابة الاجتهاد والاختيار بين المذاهب أو تبني أراء جديدة اقدر على تنزيل "النص" على "الواقع".

ففي الجانب العقدي، كان انتشار خرافات الصوفية و ما تلبسّت به من المظاهر الشركية: في مجال الاستغاثة بالأموات، والطواف حول القبور، والشرك في الدعاء، إلى ما هنالك من مظاهر الشرك والانحراف الأخرى، والتي أصبحت عقلاً سائداً متبنى من قبل المؤسسات الرسمية للدول الإسلامية، وعلماء الدين المرتبطين بهذه المؤسسات، وطوائف كبيرة من الأمة.

كما سادت في وقته [البدع] و [الخرافات] المتنافية مع النصوص الشرعية وجوهر الرسالة الإسلامية، ومن ذلك الطرق الصوفية، واعتقادات روحية مرتبطة بالتراث الفارسي واليوناني، كما انقسمت الأمة إلى مذاهب فقهية، لم تقف عند حدود الاختلاف في فروع الدين، وإنماّ تداخلت مع السياسة والأهواء، فانتشر التعصب المذهبي، والتشنج العلمي، وسادت عقيدة الولاء والبراء بناء على "المذهب" فوضع المذهب الفقهي في مرتبة موازية لمرتبة "النص الصحيح" وارتبط عدد كبير من العلماء بسلطة سياسية معينة ضمن أقاليم الحضارة الإسلامية.

في صعيد آخر انتشرت الباطنية في مناطق متعددة، وساهمت في إرباك الثقافة الإسلامية من خلال انحرافات عقيدية هائلة - لا مجال لمناقشتها - وكذلك تمزيق السلم الاجتماعي الداخلي في الأمّة.

كما أنّ بقايا عصر الفلسفة، رغم الضربات الصاعقة التي وجهتها لها مدرسة الغزالي - رحمه الله - كانت منتشرة بين نخب من العلماء والمثقفين، لكن مع اختلاف طبيعة ومقولات الفلسفة ما بين المشرق العربي ومغربه.

فوق هذا وذاك، بل وبشكل مترابط ومتشابك مع ما سبق، كان هناك انهيار سياسي واقتصادي واجتماعي وأمني ساد عدداً كبيراً من البلاد الإسلامية، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي التتار (656ه) ترافق ذلك مع تفكك سياسي وضعف عسكري، ألقى بظلال واسعة على الحياة الاجتماعية، والوضعية النفسية للناس.

إذن، كانت المهام المنتظرة أمام ابن تيميه واسعة وخطيرة، كانت تستدعي مشروعاً إصلاحيا متكاملاً يتناول جوانب التصورات النظرية والجوانب الثقافية والمعرفية، كما يتناول الجوانب السلوكية والعملية، في المحصلة نشأت مدرسة ابن تيميه الإصلاحية التجديدية في ميادين متعددة وتنقّل الشيخ بين ميادين متنوعة من الجهاد الثقافي والسياسي والعسكري.

ففي الجانب العقدي : قام مشروع ابن تيميه الإصلاحي على محاربة أنواع الشرك المختلفة المنتشرة، وتنقية التوحيد مما علق به من الشوائب و إعادة الفعالية التأثيرية له من خلال إعادة طرحه وفق منهج القرآن والسنة، بعيداً عن التباسات الفلسفة والإرجاء.

وفي الجانب العلمي والفقهي: قام المشروع على محاربة البدع والخرافات، والمدخلات التي لا تمت إلى الإسلام بصلة كالطرق الصوفية وما ارتبط بها، وبإنزال النص الفقهي منزلته الاجتهادية الطبيعية بعيداً عن أي رتبه مقدسة، وبالتالي محاربة التعصب المذهبي الفقهي، وفتح مجال الاجتهاد والإبداع للعقل، وضرب القطائع التي مزقت السلم الاجتماعي بالتعصب المذهبي وذلك من خلال تقديم رؤية معرفية / فكرية عميقة لأسباب الخلاف الفقهي وتبريره وبإلغاء أسباب ومسببات التشنج للمذهب.

أمّا في الجانب المعرفي فقد عمل ابن تيميه على إعادة بناء الثقافة والمعرفة الإسلامية بناءً يعيد الفعالية والإنتاجية لها، بترتيب العلاقة وتوضيحها بين العقل والنص ويتضح ذلك في سفره المشهور "درء تعارض العقل مع النقل" والذي أسس فيه لمعادلة "النص" و"العقل" من خلال عنصر الإدراك والفهم في تكامل ومؤازرة كل منهما (العقل والنقل) للآخر ، بدلاً من التناقض والنفي، في حين ذكر ابن تيميه أن >العقل الصريح لا يتناقض مع النقل الصحيح< إلاّ أنّه في حالة عدم القدرة على إزالة التناقض، يقدم النقل، على خلاف رأي ابن رشد الذي وصل (في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) إلى تقديم العقل وتأويل النص لمصلحته إذا حدث التعارض، لكن في اغلب الأحوال فالعقل والنقل صنوان يشد أحدهما الآخر.

وساهم ابن تيميه في ترتيب وتأصيل الثقافة الإسلامية من خلال نقده لمذهب الباطنية المغرق في مجافاة العقل والتقليل من دور الإنسان في تحديد خياراته الفقهية والسياسية والاجتماعية وذلك من خلال كتابه "منهاج السنّة" بالإضافة الى ذلك قدّم ابن تيميه نقداً معرفياً للمنطق الصوري لفلسفة أر سطو، والذي سيطر على المعرفة الإنسانية أمدا بعيداً من الدهر، والنقد "التيمي" السابق، اتفقت معه الفلسفة الحديثة، وقد عرض ابن تيميه نظريته في هذا الشأن في كتابه "الرد على المنطقيين".

وفي المجال السياسي قام مشروعه الإصلاحي على استنهاض دور الأمة في الدفاع عن أراضيها واعادة الاعتبار للعلماء في مسيرة الإصلاح والنهضة، وقد ضرب بنفسه نموذجاً حيوياً، في مشاركته في محاربة البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراسلة الحكام والقيادات وترغيبهم وترهيبهم بضرورة الدفاع عن أراضى المسلمين، واعتمد في نظريته السياسية (انظر حسن كوناكتا، النظرية السياسية عن ابن تيميه) في نقل خلافة النبوة من الإمام والحاكم الى الأمة الإسلامية جمعاء، وبالتالي مطالبة الأمة بالفعل والتغيير بدلاً من الانتظار والقعود.

وليست وفاته في السجن إلا تعبيراً عن عمق النموذج الذي ضربه المشروع الإصلاحي له في دور العلماء ومكانتهم، وإدراكهم لشروط التحالف والتخالف مع السلطة وفقاً لضابط المصلحة الشرعية.

وفي المجال الاجتماعي عمل على إعادة الاعتبار للبعد الإيماني والأخلاقي ولعلّ تلميذه ابن قيم الجوزية (ت 751ه) قد توسّع في هذا الجانب في التأكيد على القيم الإيمانية والأخلاقية التي تحكم الجوانب الاجتماعية والنفسية والسلوكية.تشكل الجوانب التجديدية السابقة المعالم الفكرية لمدرسة ابن تيميه الإصلاحية وهنا يجدد القول إن ابن تيميه قد بنى على من سبق أفاد من نتاج وتراث شوامخ العلم في التاريخ الإسلامي، لكنه استطاع توظيف كل ذلك في تقديم خطاب إصلاحي ينتشل الأمة من النوازل التي وقعت فيها، ولعلّ هذا هو سرّ تميز ابن تيميه والأمر الذي أدى الى اعتباره مؤسس المشروع السلفي الإصلاحي، وفي المحصلة اعتبار كتاباته وارائه ومواقفه مرشداً أساسياً للعمل السلفي الإصلاحي -2- محمد بن الوهّاب

قام عدد من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميه بإكمال مجهوداته المعرفية والفكرية والإصلاحية في ميادين شتى، بيد أن القرون اللاحقة شهدت جموداً كبيراً في العلم الشرعي، وانتشر >التقليد< وغاب الاجتهاد، وتعلقّ العلماء والمفتون في متون المذاهب الأربعة عرضاً وشرحاً وحاشية بما سمي في الأدبيات الإسلامية بالمتون المخدومة.

ولم يخدم الحكم المملوكي المتأخر، كما هو الحال في الحكم العثماني فيما بعد، الحالة العلمية والفكرية في العالم الإسلامي فعلى الرغم من مجهودات العثمانيين، الهائلة في الجهاد والفتوحات والدفاع عن البلاد الإسلامية إلا أن فترتهم تميزت بما يمكن أن نطلق عليه - بمعنى الكلمة- (عصر الظلمات) خاصة القرون الثلاثة الأخيرة وقد تبنت المؤسسات الدينية الرسمية في الدولة العثمانية المذهب الأشعري والصوفية والحنفية وانتشرت مرة أخرى صنوف متعددة من الانحرافات في التوحيد، وألوان من الشرك، مثل: الطواف حول القبور، الطرق الصوفية، الاستغاثة بالأموات، التقليد، البدع .. الخ.

في هذا السياق ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1115-1206ه) (1703-1791م) وعلى الرغم من تمسك محمد بن عبد الوهاب بالمذهب الحنبلي في مجال الفقه، إلا انه تأثر كثيراً بمدرسة ابن تيميه في التوحيد ومحاربة البدع والطرق الصوفية، وما الى ذلك، وقد بدأ دعوته ونشرها.

وحارب الانحرافات السابقة، كما دخل في تحالف مع آل سعود، مما ساهم في تقوية الدعوة وتثبيتها في جزيرة العرب، وفرض المدرسة "الوهابية<" هناك ، وقد تأثر عدد من العلماء والمجاهدين - خاصة في شمال إفريقيا - بالدعوة الوهابية.

حقق المشروع الوهابي نجاحاً نسبياً في الجزيرة العربية، إلا أن جيش محمد علي باشا قضى على طموح وأحلام الدولة السعودية في التوسع ونشر أيدلوجيتها الدينية، ولكنها عادت وتقوت وتعززت فيما بعد.

ويمكن القول أنّ الدعوة الوهابية التجديدية بقيت أسيرة لقضايا معيّنة..أولاً: تراث الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه والتركيز على جانب التوحيد ومحاربة البدع مع إغفال للجوانب الأخرى في المشروع السلفي الإصلاحي الذي أسسّه ابن تيميه مثل: محاربة التقليد، تحرير العقل من سلطة المذهب، الاجتهاد المعرفي في نقد الفلسفات الحضارية الأخرى، فهذا الانغلاق على تراث ابن عبد الوهّاب عزز جوانب على حساب جوانب أخرى، فاتسمت >السلفية الوهابية< ذاتها بالجمود الفقهي، وورثت عن مدرسة الحديث موقفاً

سلبياً ضد العقل والاجتهاد، وورثت موقفاً متخوفاً رافضاً بشكل مبدئي لثقافة الحضارات الأخرى أيضا بتأثرها بمدرسة >الحديث< ؛ والتي رفضت الآخر الحضاري رفضاً مطلقاً، على خلاف ابن تيميه الذي فكك الثقافة الأخرى وميّز خيرها من شرها.
ثانيا: أثرت الطبيعة القبلية والبيئة الصحراوية بشكل كبير في محدودية المشروع الإصلاحي للدعوة الوهابية، والتي لم تحتك مباشرة بالاستعمار الغربي، ولم تدرك الفارق الحضاري الشاسع الذي ظهر بين الغرب والمسلمين في ميادين الحياة المختلفة.هذه – العزلة- الثقافية والحضارية أبعدت السلفية عن فرص الإفادة من الفتوحات المعرفية الحضارية و مسائل التقدم العلمي والتكنولوجي، وتطور العلوم الإنسانية.. الخ. وبالتالي لم تعش هذه الدعوة جدالات وتساؤلات النهضة والتحديث ،فبقيت محصورة في تراث محمد بن عبد الوهاب.
ثالثا: إذا كان من الصعب إنكار دور التحالف السياسي بين آل سعود والدعوة الوهابية في فرض وسيادة هذا الفكر في أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية، فإنّ هذا التحالف في جانب آخر أثر بشكل كبير على الفكر السياسي لدى علماء الدعوة الوهابية، حيث ركزت أدبيات الدعوة الوهابية على الطاعة للسلطان ومناصرته، وعدم جواز الخروج عليه بصفته إماماً للمسلمين، وجمدت – الوهابية- عند حدود المواقف السياسية السابقة، وبالتالي لم نشهد أية محاولة لتجديد الفكر السياسي وتطويره حتى تعاملهم مع الميراث الفقهي الإسلامي - ومن ذلك ميراث ابن تيميه – (في الجانب السياسي) كان تعاملاً مجتزءاً متحيزاً سطحياً.
الى جانب المحددات السابقة فإن الدعوة السلفية الوهابية كما تأثرت بابن تيميه ومدرسته في مجال التوحيد ،فقد تأثرت بمدرسة الإمام احمد بن حنبل في جانب الفقه، والموقف من العلوم العقلية، وبلا شك فإنّ هناك مفارقة أساسية بين موقف ابن حنبل من الفلسفة اليونانية ومن المعتزلة - ذلك الموقف الذي استند على مواجهة انحرافات فكرية محددة - وبين موقف اتباع الدعوة الوهابية من المعرفة الإنسانية والعلوم العقلية في ميادين التقدم العلمي والمعرفي، والأخطر من ذلك - كما بيّنا سابقاً - الموقف السلبي من دور العقل في ميدان الاجتهاد والتجديد.
واستمر انتشار ونفوذ الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية الى اليوم، وظهرت مجموعة من العلماء والدعاة المتميزين المتأثرين بها فيما بعد، ولعل أبرزهم محمد بن علي الشوكاني في اليمن والذي اتسم نشاطه في الجانب العلمي والفكري بعيداً نسبياً عن الجانب الحركي الإصلاحي. - 3 - السلفية النهضوية
ظهرت الدعوة السلفية الإصلاحية بشكل مختلف - في جوانب متعددة عن الدعوة الوهابية - في بدايات القرن العشرين، من خلال رواد كبار مثل: محمد رشيد رضا، ابن عاشور، علال الفاسي، ابن باديس، وغيرهم. وقد انتشرت هذه الدعوة في شمال إفريقيا تحديداً على امتداد الدول العربية هناك.
بينما امتازت السلفية الحديثة او الإصلاحية او الوطنية او النهضوية أياً كانت التسمية، بأنها ولدت في آتون معمعة الصراع الحضاري والثقافي مع الغرب المستعمر مما أعطاها حافزاً ودافعاً كبيراً للتجديد في ميادين المعرفة والفكر والثقافة.
وقد برز تأثر المشروع السلفي النهضوي بمدرسة ابن تيميه من خلال التركيز على التوحيد ومحاربة الانحرافات الشركية والبدع والضلالات، بالإضافة الى رفض الجمود المذهبي، والدعوة الى توسيع دائرة الاجتهاد والتجديد وإعادة الاعتبار الى دور العقل - مما شكل فارقاً نوعياً عن الدعوة الوهابية - ومحاربة التقليد والطرق الصوفية وتقديس المشايخ ..الخ.
كما أنّ التحدي الحضاري كان بمثابة >المهماز< الذي دفع هذا الفكر لجدالات وأسئلة النهضة والتقدم واسباب التخلف، حيث يلاحظ ثراءً كبيراً وخصوبة بالغة في الجوانب المعرفية والفكرية لدى هذا الفكر، أضف الى ذلك إعادة اكتشاف رواد هذا الفكر لعلم المقاصد الذي ساهم بشكل كبير في تأسيسه الإمام الشاطبي رحمه الله (ت: 097هـ) فألف ابن عاشور وعلال الفاسي كتباً في المقاصد، وتحدث رشيد رضا عنها، وساهم انتشار المذهب المالكي في الشمال الإفريقي الى إعادة الحيوية الى مفاهيم شرعية مثل: المصالح الشرعية والمصالح المرسلة، خاصة في مسائل السياسة والمعاملات.
وعلى الرغم من الثراء الهائل في الجوانب المعرفية والفكرية للمشروع السلفي النهضوي ،إلا أنّه عانى من قصور حركي، باستثناء نسبي لتجربة جمعية العلماء المسلمين في الجزائر. هذا القصور الحركي اثرّ سلبياً على انتشار هذه الدعوة وتوسعها، وعدم قدرتها على ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنّ بعض روادها مثل: محمد رشيد رضا عانى من تخبّط في المواقف السياسية،مما ولّد بعض الانطباعات السلبيّة لدى الأجيال اللاحقة.
وقد شهدت أربعينات القرن المنصرم وما بعدها انقطاعاً كبيراً عن السلفية النهضوية، خاصة في أثناء مرحلة زوال وتفكك الاستعمار وظهور الصراعات الداخلية الأيدلوجية على الهويّة، والاستقطاب الحاد داخل المجتمعات العربية والإسلامية بين الاتجاهات السياسية والحركية الإسلامية وبين الاتجاهات القومية واليسارية والوطنية الأخرى، هذه المرحلة العاصفة شهدت (في ذات الوقت) محاكمة فكرية جائرة لرواد وأفكار المدرسة السلفية النهضوية من خلال اتهامها بالعقلانية او التمييع !، وتمّ اجتزاء بعض النصوص الفكرية لعدد من روادها، واخراجها عن سياقها التاريخي والحضاري، وبالتالي توجيه التهم السابقة لها.
المقصود؛ أن المدرسة السلفية النهضوية ذبلت أفكارها ورؤاها منذ الأربعينات الى تسعينات القرن المنصرم، وغُلّبَ الجانب السياسي في الصراع بفعل الظروف التاريخية السياسية والصراعات الحادة على الهوية والسياسة في الدول القطرية العربية. -
4 - السلفية تعود من جديد
يمكن القول أنه ومع الربع الأخير من القرن المنصرم بدأت السلفية بصورتها "الوهابية" بالانتشار والامتداد الى مناطق كثيرة في العالم العربي والاسلامي، وقد ساعد على ذلك الطفرة النفطية وتطور وسائل الاتصال والنشر فبدأ عدد كبير من الطلاب بالذهاب الى السعودية ، وتلقي العلوم الشرعية أو حتى العاملين الذين كانوا يتأثرون بالمناهج الدينية والعلماء الموجودين هناك، كما ساعدت الإمكانيات المالية على تشجيع نشر الدعوة وتبنيها من قبل أعداد كبيرة من الناس.
بالإضافة الى العوامل السابقة ساهم الجهاد الأفغاني سابقاً والشيشاني وفي البوسنة لاحقاً ، في انتشار وازدياد هذا الفكر، وبلغ الأمر اوجه في تسعينيات القرن المنصرم مع انتشار أشرطة الكاسيت والكتيبات، وازدياد رحلات العمرة والمؤتمرات الإسلامية، وظهور مجموعة من العلماء في مجالات متعددة يتعاملون بشكل افضل مع لغة العصر، كل هذا وذاك ادى الى انتشار كبير للدعوة السلفية، وتأثر ملايين الناس فيها.
وهنا لا بد من تسجيل ملاحظة أساسية: هي إن حرب الخليج الثانية، شكلت نقطة تحول ولحظة تاريخية فارقة أدت الى بروز ثلاثة اتجاهات رئيسية في المشروع السلفي، الاتجاه الأول : والذي سعى الى الحفاظ على الموجود ، وعدم التغيير، فبقى ملتزماً بالخط

السلفي الوهابي المصاحب للجمود الفكري والفقهي، ومحاربة التجديد والاجتهاد، والتقليل من مكانة ودور العقل، وفوق هذا وذاك الإصرار على ميدان معركة قديمة مع أهل القبور والتوسل والصوفية، معركة، لم يعد ميدانها ميداناً أساسيا في حياة الأمة، فأصبح هذا الاتجاه مع إصراره – كذلك - على الفكر السياسي الذي يدور في مجال طاعة الحاكم وعدم الخروج عليه والابتعاد عن السياسة، وإلغاء دور الأمة في قضاياها المصيرية، أقول : وفقاً لهذه المعطيات اصبح هذا الاتجاه يعيش على هامش المجتمع والحياة، ولكن تركيزه الإيجابي كان في التأكيد على التوحيد ومحاربة صور وأنواع من الشرك، ومحاربة البدع - وان كان تعريفهم للبدعة قد وسعها الى ميادين لا ينبغي أن تصل إليها - ، وأيضاً في شرح وتفصيل متون العلم الشرعي، والتذكير بالعبادات وبيانها وتفصيلها.

أما الاتجاه الثاني : فقد تمثل في الاتجاه الجهادي ، والذي اختار ميادين الجهاد والدفاع عن أراضى المسلمين في افغانستان، الصومال، الشيشان، البوسنة، ومثلت حرب الخليج الثانية نقطة تحول في حياة هذا التيار لأسباب: الأول إن حرب الخليج الثانية كانت عنواناً لانهيار الأيدلوجية الشيوعية و دولها ، وتلت انهيار الاتحاد السوفيتي وانسحابه من أفغانستان، وبالتالي فإنّ الشباب العربي الذي تعبأ بروح الجهاد في أفغانستان ، سيعود الى بلاده مصطحباً معه هذه الروح في ميدان تعقيداته السياسية والثقافية والاجتماعية تختلف عن ميادين القتال التي شارك فيها.

الثاني إن حرب الخليج كانت بداية تحولات سياسية واستراتيجية في المنطقة ، واعادة تعريف المصالح الحيوية الأمريكية ومصادر التهديد ، وبالتالي أضحت الحركات الإسلامية وفي مقدمتها الجهادية أحد ابرز مصادر التهديد، ومن هنا كانت بداية الصدام.

الثالث إن الجهاديين نظروا الى الوجود والمشروع الأمريكي في المنطقة نظرة عدائية، ومن هنا تحول العداء من الكتلة الشيوعية الى الولايات المتحدة وإسرائيل.

الرابع إن قيادة العرب الأفغان انتقلت من عبد الله عزام ألاخواني في الثمانينات الى بن لادن السلفي الوهابي السعودي في منتصف التسعينات، وأدى ذلك الى توحد بين الاتجاه السلفي والاتجاه الجهادي بامتداداته المختلفة خاصة جماعة الجهاد المصرية، ذات الطابع السلفي أصلا، وبرز لدينا بشكل قوي التيار السلفي الجهادي، والذي شكل مع بداية التسعينات وبشكل كبير مع منتصف التسعينات حالة أمنية، واجتماعية واضحة في عدد كبير من الدول العربية والإسلامية.

وباختصار تركز منهاج هذا الاتجاه على مبدأ الحاكمية، واختيار طريق العنف في الداخل والجبهة الإسلامية لقتال الأمريكان والصهاينة في الخارج ومفاصلة الأنظمة السياسية العربية.

أما الاتجاه الثالث : فهو اتجاه مجموعة من الشباب السلفي المثقف، والذي اطلع على جزء من الحضارة الغربية، وتنوعت قراءاته فلم تقف عند حدود معينة، كانت بداية هذا الاتجاه العلنية في نقد التفكير السياسي السلفي، خاصة الموقف من حرب الخليج الثانية وتطور الى بلورة رؤية نقدية عامة للتيار السلفي الوهابي في صورته السائدة، وقد بدأ هذا الاتجاه بالعودة الى مشروع السلفية النهضوية للاستفادة منه في بناء مشروع سلفي إصلاحي يتجاوب مع التحديات الحضارية والسياسية ... الخ

و ساعد هذا الاتجاه وجود عدد من العلماء والدعاة المعروفين والموثوقين، مثل: د. سفر الحوالي، الشيخ. سلمان العودة، د. ناصر العمر، د. محمد الاحمري،أ. جمال سلطان.. وغيرهم من علماء ومثقفين ومفكرين، ومن سمّاهم خالد حسن "بالسلفيين المُسيّسين " في الجزائر. بدءوا جميعاً بمراجعة أوراق المشروع السلفي الإصلاحي، وتلمس الطريق الى المستقبل..

- 5 - أفاق المستقبل

كما كانت حرب الخليج الثانية نقطة تحول، فإن أحداث 11 سبتمبر كانت لحظة تاريخية مهمة في المشروع السلفي في العالم، حيث إن التيار السلفي الجهادي قد نقل ميدان وطبيعة المعركة مع الولايات المتحدة الى مرحلة خطيرة ووصل الصراع الى اوجه، مما أصاب باقي طوائف الدعوة السلفية.

بالنسبة للاتجاه السلفي الجمودي، فقد ظهر عجز خطابه وعدم إمكانيته في التعامل مع المتغيرات والتطورات السياسية الحضارية المتمثلة في العولمة والتي تستدعي ثقافة اشمل واعمق، ويبدو أن وفاة ابن باز وابن عثميين قد أثرت بشكل كبير على قوة ووجود هذا التيار في مهده -السعودية - وفتحت المجال أمام قيادات التيار السلفي الثالث ، ورموزه لسد الثغرة واصبحوا يشكلون قيادة علمية ودعوية حقيقية.

أما واقع الاتجاه السلفي الجمودي في باقي المناطق فلا يختلف كثيراً عن حاله في السعودية رغم محاولات الترميم والصيانة!

أما الاتجاه الجهادي فتختلف حالته من دولة الى أخرى بين قوة وضعف، وقد بدأت طوائف من أبناء هذا التيار بمراجعات لتحديد طبيعة وكيفية التعامل مع المرحلة الجديدة بعد 11 سبتمبر في ظل الضغط الأمني والسياسي والملاحقة المستمرة، وفي ضوء مراجعة حقيقية لطريق العنف والعمل المسلح داخل البلاد العربية والإسلامية وما ترتب عليها من مصالح ومفاسد.

وبالنسبة للاتجاه الثالث، فإن الأحداث الأخيرة قد عجلت في بلورة مشروع متكامل لهذا الاتجاه، بدأت ملامحه سابقاً مع مطالبة علمائه في السعودية بالإصلاحات السياسية والاصطلاحات العامة، وبتأسيس حزب الإصلاح في مصر، وتأسيس عدة مجلات آخرها مجلة المنار الجديد، والتي يشير عنوانها الى وجود توجه لدى أبنائه بالرجوع الى المشروع السلفي النهضوي ومدارس رشيد رضا وابن باديس في ميادين التجديد الثقافي والمعرفي.

كما أظهرت الشهور الأخيرة - بعد 11 سبتمبر - حرص هذا الاتجاه على بناء مؤسساته الثقافية والإعلامية والسياسية، وتجديد لغة خطابه بما يمكنها من مواجهة روح العصر، و أظن أن هذا الاتجاه قد استطاع تحقيق اختراقات هائلة في ميادين متعددة في عدد كبير من الدول.

والواضح أن الاتجاه الثالث هو الذي يقوم اليوم بمراجعة شاملة لمسار الدعوة السلفية ورصد وتحليل نجاحاتها واخفاقاتها ومدى قدرتها على تحقيق أهداف النهضة والإصلاح ومواجهة الكبوات والنوازل الحضارية للأمة.

وهذه المراجعة تضع أمام أبناء هذا الاتجاه مهام أساسية للمرحلة القادمة..

تتمثل هذه المهام في إعادة استلهام نموذج مدرسة ابن تيميه في الإصلاح الشامل، على المستوى الفكري والمعرفي والعملي، وعدم الاقتصار على الجانب النظري والعلمي - كما حدث مع السلفية النهضوية في بدايات القرن - والمقصود بالجانب العملي هو بناء المؤسسات والأحزاب او الجماعات التي تكفل نشر مبادئ وثقافة هذا المشروع الإصلاحي مثل: مراكز الأبحاث والدراسات و المؤسسات الإعلامية والثقافية و الجمعيات والنوادي..، واختراق الحياة الثقافية والسياسية.. وهذا يستدعي بدوره تجديداً في الفكر

السياسي والاجتماعي والنهضوي لهذا الاتجاه ، وتجديد معالم المشروع السلفي الإصلاحي في مواجهة التحديات الحضارية والسياسية..الخ

إن الأمر يتطلب من مفكري وعلماء هذا التيار أن يعودوا الى قراءة نموذج ابن تيميه ، والذي لم يخش التجديد والاجتهاد ، وإعمال العقل في النوازل والتحديات ، وفي النصوص ، والجرأة في طرح ما يعتقدون انه صواب واقدر على التعامل مع الواقع.

ونموذج ابن تيميه والمدرسة النهضوية يمكن أن نلمس منه التجديد المعرفي والفكري وقراءة الثقافة الأخرى وتفكيكها وتمييز خير عناصرها من شرها، والاجتهاد الفقهي، والتجديد في الممارسة العلمية والثقافية في ميادين مختلفة بما يخدم العلوم الشرعية وحيويتها وقدرتها على التفاعل مع روح العصر، ونشر الهداية الإسلامية بروح جديدة بعيداً عن نمط الكسل الذهني والجمود والتقليد الذي طغى على الدعوة السلفية حيناً من الدهر.

كما يتطلب الأمر عدم الوقوف عند مظاهر الانحرافات وصور الشرك القديم، والتي واجهها محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وقبله ابن تيميه ، وانما مواجهة الصور والانحرافات المتجددة والأنواع المستحدثة من الشرك، وفوق ذلك إعادة اكتشاف الأبعاد المتنوعة والمتعددة أخلاقيا وحضارياً وثقافياً لعقيدة التوحيد.

ونموذج ابن تيميه مؤسس المشروع السلفي الإصلاحي يستدعي – كذلك - إعادة الاعتبار لدور العلماء في الإصلاح والتغيير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبناء العلاقة مع السلطة سواء بالموافقة أم المعارضة ، بناء على رؤية شرعية واقعية تتحرى الضوابط الشرعية لمفهوم المصالح والمفاسد.

ونموذج مدرسة ابن تيميه يستدعي التذكير؛ تذكير المجتمع والأمّة بالله ووجود وحضور الوعظ والإرشاد في المشروع السلفي الإصلاحي ،والعمل على تجديد الإيمان في قلوب الناس، وإحداث التغيير والانقلاب النفسي والاجتماعي.

وأمام المراجعين في المشروع السلفي الإصلاحي نموذج المدرسة الوهابية في التأكيد على التوحيد ونقائه وفعاليته، ومحاربة البدع والضلالات والمنكرات وصور الشرك المختلفة ، وعدم بقاء الدعوة في الصورة الثقافية والفكرية ، و ضرورة تحولها الى حركة اجتماعية سياسية تمارس فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتغيير الاجتماعي والسياسي والحضاري.

كما لابد من استلهام نموذج السلفية النهضوية في التجديد والاجتهاد، واعادة الاعتبار لدور العقل والتجديد، وتلمس الأبعاد الاجتماعية والسياسية والثقافية.. الخ في الوحي(بشقيه الكتاب والسنة) والتأكيد على البعد الإصلاحي والنهضوي في المشروع والدعوة السلفية، واعادة الاعتبار لمفهوم المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ومواجهة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ووضع الحلول المناسبة لمشكلاتها بمعنى عرض المشروع الإسلامي في أبعاده المتكاملة والشمولية.

بالإضافة الى ما سبق فإن على المراجعين للمشروع السلفي الإصلاحي نصيحة وارشاد واحتضان أبناء التيار الجهادي وذلك بالتمييز والتفريق لهم بين ميادين الجهاد الواضحة، مثل: فلسطين والشيشان.. الخ، التي لا يوجد حولها نقاش والتباس، وبين الميادين الداخلية في الدول العربية والإسلامية والتي تسود فيها جدالات وأسئلة التغيير والنهضة، فاليد العسكرية القوية التي يمتلكها المشروع السلفي الإصلاحي اليوم يجب أن توظف التوظيف الصحيح المناسب في الزمن المناسب والمكان المناسب، وإلا ارتكبت أخطاء خطيرة تضر بالدعوة ولا تنفعها!

أخيرا...

لا بد من القول: إن المشروع السلفي الإصلاحي يمر بمرحلة مراجعة شاملة، تستدعي النظر في مسار الدعوة السلفية ومدى نجاحها وإخفاقها في تحقيق أهدافها في هداية الناس.

وأسجل هنا ملاحظة أساسية، وهي أن المشروع السلفي الإصلاحي ليس بديلاً عن الحركات الإسلامية الأخرى، وانما مسانداً ومكملاً لها، ويحمل ميراثاً كبيراً في منهجية الاصطلاح يبتدئ بابن تيميه وابن القيم مروراً بمحمد بن عبد الوهاب والشوكاني وكذلك بابن باديس ورشيد رضا وعلال الفاسي وصولاً الى اليوم، فيسعى هذا المشروع الى تقديم الخطاب الإسلامي في الهداية والتذكير والإصلاح والنهضة بأبعاده الشمولية مستفيداً من التجارب السابقة ومن الموروث السلفي الضخم. فالتوحيد ومحاربة الشرك والبدع والأهواء والضلالات والدعوة الى التحرر من قدسية الأشخاص وانزال النص الفقهي منزلته الحقيقية في إمكانية الخطأ والصواب، والدعوة والعمل على فتح باب الاجتهاد والتجديد ونبذ الجمود والتقليد ونشر خطاب التذكير والوعظ والعمل الإصلاحي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبناء المؤسسات والمشاركة في الميادين الاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية أهم المعالم والتحديات بخصوص المشروع السلفي الإصلاحي اليوم..

للعودة للأعلى